(٥٣) خير النساج[١]

ذكر الشيخ خير النسّاج عليه الرحمة والرضوان:

كان رحمه الله شيخًا لكثيرٍ من المشايخ ببغداد، وله في الوعظ بيانٌ شاف، وعبارةٌ مهذَّبة، وكان صاحبَ معاملةٍ وورعٍ، وخُلقٍ وحلمٍ، ومُجاهدةٍ كاملة.

وكان تلميذًا للسريِّ السَّقطي، وتاب الشِّبليُّ، وإبراهيمُ الخوّاصُ في مجلسه، لكنه بعثَ الشِّبليَّ إلى الجُنيد حُرمةً للجنيد، والجُنيد كان يُعزّزه ويُوقّره.

مات رحمه الله في سنة خمس وثلاث مئة[٢].

وسببُ تسميته بالخيرِ النسّاج أنه حين وصلَ إلى بابٍ من أبواب الكوفة، وعليه مرقعةٌ مقطَّعةٌ، وكان رحمه الله أَسمر اللون، استقبله شخصٌ، وظنَّ أنه مَملوكٌ آبقٌ من السيد، فقال في نفسه: أستعملُهُ أيّامًا، فإن ظهرَ صاحبُه وإلاّ يبقى لي مملوكًا، فقال له: أنت مملوك؟ قال: نعم. قال: آبق من سيِّده؟ قال: نعم. قال: تعال معي أذهبك إلى بيتي، وأربّيكَ إلى أن يجيءَ صاحبُك. قال: نعم. قال الشخص: اسمك خير؟ قال: نعم، ولم يُكذّبه من حُسن عقيدته، ولم يُخالفْه، ووافقه، وذهب معه إلى بيته، واشتغل بخدمته، والرجلُ كان نسَّاجًا،

---

(١) طبقات الصوفية ٣٢٢، حلية الأولياء ١٠/ ٣٠٧، تاريخ بغداد ٢/ ٤٨، و٨/ ٣٤٥، الرسالة القشيرية ٩٥، مناقب الأبرار ٦٢٠، صفة الصفوة ٢/ ٤٥١، المنتظم ٦/ ٢٧٤، المختار من مناقب الأخيار ٢/ ٢٥٩، وفيات الأعيان ٢/ ٢٥١، سير أعلام النبلاء ١٥/ ١٩٣، مرآة الجنان ٢/ ٢٨٥، الوافي بالوفيات ١٣/ ٤٤٤، البداية والنهاية ١١/ ١٨١، طبقات الأولياء ١٩٦، نفحات الأنس ٢٠٢، الطبقات الكبرى للشعراني ١/ ١٠٢، الكواكب الدرية ١/ ٥٩٥، شذرات الذهب ٢/ ٢٩٤.

(٢) في (ب): سنة خمس وثلاث مئة سنة.

فعلّمَهُ صنعته، ومن يقول له: خير، كان يقول: لبيك، إلى أن رأى صدقَه وديانتَهُ، وأدبه وطاعَتَهُ وفِراسته، واطَّلعَ على بعضِ مُجاهداته وطاعاته وعباداته، فندمَ من فعله، وعلمَ أنّه غالطٌ فيه، وقال: يا خير، علمتُ أنّك حرٌّ، ما أنت مملوكًا لي ولا لغيري، فاذهبْ إلى ما تُريد. فذهب إلى مكّة، وترقّى إلى أن قال الجُنيد رحمه الله: خَيرُنا خَيرُنا.

وكان يُحبُّ أن يُسمّى خيرًا، قال: لا أُحبُّ أن أُغيَّرَ اسمًا سمّاني به مسلم.

نقل أنه رحمه الله كان ينسجُ ويمشي في بعض الأوقاتِ إلى جنب دجلةَ، واتَّفقَ أن جاءت عجوزةٌ إليه بشيءٍ من الغزل لينسجَهُ لها كِرباسًا[1]، وقالت: أجيءُ بالأجرة، فإن لم تكن حاضرًا إلى من أُسلّمُ الدراهم؟ قال خير رحمه الله: إذا لم أكن حاضرًا، ارميها في دجلة. فجاءتِ العجوزة بالدراهم، ولم يكن خيرٌ حاضرًا، فذهبت إلى دجلةَ فرمتها فيها، ثم ذهبَ خيرٌ إلى دجلة، طلعت سمكةٌ، وجاءت بالدَّراهم، ووضعتها بين يدي الشيخ.

قال الراوي: لمَّا سمعَ المشايخُ هذه الواقعةَ ما استحسنوها، وقالوا: قد أوقفوا خيرًا باللعب، فإن مثلَ هذا ليس مما يغترُّ به وليٌّ من الأولياء.

قال بعضُهم مُعتذرًا من جهة خير: إنَّا لا نعلمُ اغترارَ خيرٍ بهذا، كما أنَّ سُليمان عليه السلام دعا اللهَ تعالى وقال: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ﴾ [ص: ٣٥] مع أنه عليه السلام لم يكن مَغرورًا بما أعطاه الله تعالى من الملك والحشمة والسلطنة.

نقل أنه قال: كنتُ في البيتِ إذ خطرَ ببالي أنَّ جُنيدًا رحمه الله هو على الباب، فنفيتُ الخاطرَ إلى ثلاث مرات، ثم خرجتُ، فالتقيتُ بالجُنيد واقفًا على الباب، وقال لي: لِمَ ما خرجتَ بالخاطر الأول؟.

قال: دخلتُ مسجدًا، ورأيت فيه فقيرًا، فتعلّق بي، وقال: يا شيخ، ترحَّمْ عليَّ، فإنّي قد وقعتُ في محنةٍ عظيمة. قلت: وما هي؟ قال: أخذوا البلاءَ

---

(١) الكِرباس: ثوب من القطن الأبيض. فارسيٌّ معرب. معجم متن اللغة.

منّي، وعاقبوني بالعافية. والحالُ أنّه رُزق دينارًا، قال: أخافُ بسببه سوطًا من سياطِ الله جلّ جلاله.

قال خير رحمه الله: العمل إذا بلغ النهاية، فعلامتُهُ رؤيةُ العجز والتقصير.

نقل أنه رحمه الله عاشَ مئةً وعشرين سنة، وجاء إليه مَلَكُ الموتِ قُبيل صلاة المغرب، وكان مريضًا، فرفع رأسَهُ وقال: عافاك الله يا ملكَ الموت، لا تستعجلْ، وتوقفْ قليلاً؛ فإنّي أَعلمُ أنك عبدٌ مأمورٌ بقبضِ روحي، وإنّي عبدٌ مأمورٌ بإقامة هذه الصلاة، ولا يفوتُ شيءٌ أُمرتَ به، ولكن يفوتُ ما أنا أُمرتُ به، فأمهلني لحظةً. ثم قام وتوضَّأَ وصلّى صلاة المغرب، وتوفّي إلى رحمة الله تعالى.

ورئي في المنام في تلك الليلة، وقيل: ما فعل الله بك؟ فقال: لا تسألوني عن هذا؛ ولكنّي قد خلصتُ من دنياكم.

رحمه الله رحمةً واسعةً، وأسكنَهُ بحبوحة فراديسه، ونبَّهنا بكرمه من نومة الغافلين، وأشركنا بلطفه في دعاءِ الصالحين، ولا تجعلْنا من الأشرين البطرين، وصلّى الله على خيرِ المُرسلين، وشفيع المُذنبين، وعلى آله الطيبين، وعترته الطاهرين، ويحشرنا في زمرتهم أجمعين[1].

* * *

(١) قوله: (ويحشرنا في زمرتهم أجمعين) ليس في (أ).